دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 32، العدد 1، 2005

تجليات التضاد في شعر العباس بن الأحنف

صالح علي سليم الشتيوي *

ملخـص

يكشف هذا البحث عن ظاهرة التضاد في شعر العباس بن الأحنف، ويعني الباحث بالتضاد إبراز المواقف المتضادة والمتصارعة داخل الذات الشاعرة أو بينها وبين البشر أو المكان أو الزمان أو الحيوان... وغير ذلك؛ لتشكيل رؤية جديدة نحو الكون والحياة- ولم يعن به التضاد بالمفهوم البلاغي- إذ كان الشاعر عذرياً، ولذا، كانت تعتمل في نفسه أحاسيس متناقضة عكسها على صفحة النص الشعري؛ فحاول الباحث أن يبين تجليات هذه التضادات والمعاني التي تتوارى خلفها وأثرها في نفسية المتلقي.

الكلمات الدالة: التضاد، العباس، الأحنف.

المقدمـة

يكشف هذا البحث عن "تجليات التضاد في شعر العباس بن الأحنف"، ذلك أن هذه الظاهرة تتبوأ مكانة كبيرة في شعره. ويحاول -البحث- أن يقف عند مفهوم التضاد من خلال المعجمات وفي ضوء الدراسات النقدية والبلاغية القديمة والحديثة.

أما مظاهر التضاد التي يعالجها البحث، فهي:

1. الأنا والذات.
2. الأنا والآخر "المحبوبة".
3. الأنا والمجتمع.
4. الأنا والطبيعة.
5. التضاد المكاني.
6. التضاد الزماني.
7. الحياة والموت.

ولا بد من أن يعرف كاتب هذا البحث القارئ - قبل كل شيء- بمفهومه للتضاد، فقد جاء في المعجمات: "ضاده: خالفه، فهما متضادان"[(1)]، "فالسواد ضد البياض، والموت ضد الحياة، والليل ضد النهار إذا جاء هذا وذهب ذاك"[(2)].

وللتضاد مفاهيم كثيرة ومختلفة في كتب البلاغة، فبعض النقاد عرف التضاد -أو المطابقة- بأنه "الجمع بين الشيء وضده... مثل الجمع بين البياض والسواد والليل والنهار"[(3)]، ومنهم من خالف ذلك، فرأى أن التضاد هو "ما يشترك في لفظة واحدة بعينها"[(4)].

ولكن الباحث يعني به، هنا، إبراز المواقف المتضادة بين الشاعر والبشر أو بينه وبين المكان أو الزمن أو النبات... وغير ذلك؛ لتشكيل رؤية جديدة نحو الكون والحياة. وينبغي أن ندرك أن التضاد من الظواهر الشائعة في الأدب؛ فالشعر يقوم في الغالب على بنية التضاد، بل إن "الشعر العربي لم يخل في يوم من الأيام من المقابلات المتضادة التي هي من خصائص الفكر"[(5)].

وتمثل لغة التضاد "أحد المنابع الرئيسة للفجوة -مسافة التوتر، وإننا إذا أحسنا اكتناه التضاد وتحديد مختلف أنماطه ومناحي تجليه في الشعر، استطعنا في نهاية المطاف أن نضع أنفسنا في مكان هو الاكثر امتيازاً وقدرة على معاينة الشعرية وفهمها من الداخل وكشف أسرارها"[(6)].

ومما يجدر ذكره أن "الخصيصة التي تمتلكها اللغة في الخلق الشعري ليست التوحد والتشابه بل المغايرة والتضاد"[(7)].

وللتضاد قيمة داخل السياق النصي؛ إذ "تتشكل بنية التضاد خلخلة في بنية اللغة التي تصبح قائمة على المخالفة والمصادمة، ولكن هذه الخلخلة كفيلة بإيقاظ القارئ واستنفاره، كما انها تقود إلى اليقظة لمواجهة مثل هذه الظاهرة الأسلوبية بشكل يحقق فيها اتصالاً مع النص المدروس"[(8)].

---

* قسم اللغة العربية، كلية العلوم والآداب، الجامعة الهاشمية. تاريخ استلام البحث 2004/4/12، وتاريخ قبوله 2004/6/30.

إلى جانب أن "لظاهرة التضاد دلالة سيميائية من حيث كونها تثير حركة ديناميكية في السياق النصي، وتجعل تفاعل المعاني والأخيلة والأحداث والشخصيات محققاً في جوهر واحد يمثله المعنى، مما يسمح بإعادة ترتيب بنية النص وجعله أكثر تكاملاً وانسجاماً"[9].

ونحن نعلم أن العباس بن الأحنف كان شاعراً عذرياً يهوى فتاة اسمها "فوز"؛ مما جعله يتعرض إلى موجات من الأرق النفسي الذي عبر عنه بالشعر، ولا شك في أن "علة الإبداع الفني تكمن في أن الفنان يعاني انفعالاً أو توتراً إزاء أحداث أو وقائع أو ظواهر اجتماعية أو اقتصادية... أو مشاهد جمالية أو أعمال فنية تثير نفسه، وتوتر وجدانه، تكون هي السبب أو العلة في دفعه إلى الإبداع الفني"[10].

انطلاقاً من هذه المفاهيم المهمة، يحاول الباحث أن يكشف عن ظاهرة التضاد في شعر العباس بن الأحنف وقيمتها في تشكيل رؤيته تجاه الكون والحياة.

1. الأنا والذات

تظهر في شعر العباس مظاهر الصراع الذاتي، من ذلك قوله:[11]

يدل علـى ما بالمحب من الهوى
تقلّب عينيه إلى شخص من يهـوى
وإن أضمر الحب الذي في فؤاده
فإن الذي في العين والوجه لا يخفى

فيستطيع القارئ أن يلحظ تقابلاً نفسياً بين الداخل والخارج في الذات المبدعة، وذلك من خلال إضمار الحب مقابل ظهور آثاره على العين والوجه؛ ليبين الشاعر الوضع النفسي الممزق الذي يعيشه؛ فالشاعر حين ينسج بنيته التضادية، فكأنما يحاكي صراعاته النفسية والفكرية[12].

ويتكئ الشاعر على لغة التضاد التي تنجر من الذات الشاعرة مشاعر القلق والحيرة، فيقول:[13]

اصرف فؤادك يا عباس ملتفتاً
عنها وإلا فمت من حبهـا كمدا
إني لأمنح ودي كل ذي ثقة
صرفاً وأحفظه إن غاب أو شهدا

إن اللغة التي شكلت صرح النص، تكشف لنا عن القلق القابع في لب الشاعر وكيانه، ومن هنا، جاءت هذه الهزة العنيفة التي نجمت عن المعاناة النفسية التي يعيشها الشاعر؛ مما جعله يفتتح النص بفعل الأمر: "اصرف" الذي يوجهه إلى فؤاده، ومن غير شك، فمخاطبة الفؤاد، في هذا الموقف، تعبر عن لا إرادية الحب الذي لم يعد الشاعر قادراً على الانفكاك منه.

ثم نشهد تضاداً داخلياً؛ إذ تستحيل "أنا" الشاعر إلى شخصيتين: شخصية الزاجر الناهي، وشخصية المتلقي "عباس"؛ مما يدل على التشرذم والضياع اللذين يعيشهما الشاعر.

ويتجلى التضاد بين الأنا والذات، حين يقول الشاعر:[14]

إنني ودعت قلبـ ـي
حين بالحـ ـب جمـ ـح
يغلب الهم عليـ ـه
كلمـ ـا رجـ ـى الفـ ـرح

وواضح أن الشاعر يعيش حالة من التمزق النفسي المرير، حتى صار يودع قلبه وكأنه منفصول عنه.

ويظهر انشقاق الأنا على ذاتها في قوله:[15]

اختصم العينان والقلب
قالا جميعاً: ما لنـ ـا ذنب!
فقلت: نفسي ذهبت عنوة
بينكمـ ـا هذا وذا لعـ ـب
فقال قلبي: مقلتي أبصرت
لا ذنب لـ ـي يا أيها الصب
فقلت للعين: سمعت الذي
يحكيه عن ناظرك القلب
فاستعبرت عند مقالي لها
وكان من خجلتها السكب

لقد أكسب الحوار الأبيات طرافة، كما أسهم في بعث الإثارة والتشويق لدى المتلقي؛ إذ يقف أمام حزمة من الصراعات التي شكلت فضاء النص، وغطّت مساحة تعبيرية واسعة؛ فقد تفاعلت مجموعة من الحواس، فالعين هي التي ترى المحبوبة؛ فتكون هي الأداة الأولى في سبب التعلّق بها، وهي -العين- بدورها تهتف بالقلب مقر العواطف، فيتمكن حبها من الأنا الشاعرة.

ومن جهة أخرى، يقف الشاعر وكأنه طرف ثالث يدخل في هذا الحوار، كل ذلك، ليشير إلى حالته النفسية المؤلمة، وكأنه وصل إلى درجة الهذيان، وفقد السيطرة على ذاته.

2. الأنا والآخر "المحبوبة"

كان الشاعر يعبر عن التصارع والتوتر والعلاقات المأزومة بين الأنا والمحبوبة، فيقول:[16]

سأعطيك الرضا وأموت غماً
وأسكت لا أغمـ ـك بالعتـ ـاب
رأيتك مرة تهوين وصلي
وأنت اليـ ـوم تهوين اجتنابـ ـي

وغيرك الزمان وكل شيء
يصير إلـى التغير والذهـاب
فإن يكن الصواب لديك قتلي
فعماك الإلـه عن الصـواب

يفرض التشكيل الشعري في الأبيات تضاداً خاصاً بالشاعر، انطلاقاً من موقفه الفكري والنفسي، من خلال هذه التركيبة الثنائية لهذا التوازي: الأنا/ الآخر، فالأنا الشعرية تمنح الرضا للآخر "المحبوبة"، وتتحمل في سبيله القتل، أما الآخر، فهو لا يأبه بمشاعره ومعاناته، بل يمضي في الانقلاب والهجر والصد.

ونلحظ تضاداً جنسياً من خلال الذكورة/ الأنوثة، وهو تضاد أفرزته طبيعة الموضوع الغزلي.

ويتضح التضاد في قوله:[17]

ما كنت - أيام كنت راضية
عني - بذاك الرضا بمغتبط
علماً بأن الرضا سيتبعـه
منك التجنـي وكثرة السخط
وكل ما ساءني فعن خلق
وكل ما سرنـي فعن غلط

يتجلى التضاد في الأبيات السابقة بين رؤيتين: الأنا/ العاشق والآخر/ المحبوبة، فالعاشق يرى في أسلوب محبوبته رؤية مغايرة، فهو لا يسر برضاها؛ لأنه على يقين بأن هذا الرضا سيتبعه تحول عميق يتمثل في السخط؛ لذا، فالشاعر يقف في نهاية الأمر بين صورتين متضادتين: السوء من موقف المحبوبة، وهو موقف أساسه الإخلاص لها، والسرور المؤسس على الخطأ في التوقع.

وتبدو صورة الانفصال في قوله:[18]

أيا معرضاً عني ولم أجترم ذنبا
سوى أنني أبدي وأخفي له الحبا
أيسخطكم أني هويت وصالكم؟
فلا تغضبي يا منيتي فلك العتبى
سأنهى -ولكن لا أراه يطيعني
وأزجر- عما فيه سخط لك- القلبا
لقد راضني حبيك حتى أذلني
وقد كنت قبل الحب ذا منعة صعبا

تكشف معالم اللغة الشعرية في الأبيات عن تجليات الرؤية عند الشاعر، فهو يهمه أولاً وصل الحبيب والاتصال به، ولكن الحبيب لا يكترث بهذه المشاعر والأحاسيس ولا يقيم لها وزناً، ولذا، تشكلت رؤية جديدة لدى الشاعر تجاه المحبوبة تتمثل في محاولة التخلي عنها ونسيانها، وقد أسعفت اللغة في إبراز هذا الجانب، فالنداء -في البيت الأول- بامتداده البعيد يعطي مؤشراً على أن المحبوبة في منطقة أخرى غير منطقة الشاعر، ومن هنا، جاء زجر القلب، لأنه صاحب السلطة في الحب أو الكره وشتى العواطف.

وتقوم العلاقة بين الشاعر وصاحبته على الصراع، فيقول:[19]

أبكي الذين أذاقوني مودتهم
حتى إذا أيقظونـي للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتصباً
بثقل ما حملوا من ودهـم قعدوا
جاروا علي ولم يوفوا بعهدهم
قد كنت أحسبهم يوفون إن عهدوا
لأخرجن من الدنيـا وحبكـم
بين الجوانح لـم يشعر بـه أحد

يعتمد الشاعر، في الأبيات، على التضاد الذي يجسد صورة الصراع الذي يعيشه الشاعر، فالتقابل النفسي بين اليقظة والرقود والجور والوفاء، يشي بتوتر وقلق عات يجتاح الشاعر، وهو تقابل يقوم على أساس شعوري لا فكري.

وقد أسهم هذا التضاد في الحفاظ على التماسك النصي، ولا غرو في ذلك، فالتضاد "كلما كان حاداً، كان أكثر قدرة على الربط النصي".[20]

ويشكل الشاعر ضفيرة من التضادات المختلفة داخل نسيج النص، حين يقول:[21]

قد جمع الله لي شملي بقربكم
من بعد ما كان يا نفسي الفدا بددا
وعاد نومي وقد كان الرقاد جفا
عيني وبدلت من لذاتـــه السهدا
وكان قد غاب لما غبت عن جسدي
قلبي وأورثت همـا فتت الكبـدا
وكنت أسخن خلق الله كلهم
عيناً وأطولهم من وحشتي كمـدا
فقرت العين يا نفسي بقربكم
وغاب همي ووافى روحي الجسدا
فالحمد لله ذي النعماء يا سكني
حمداً كثيراً لربي دائمـاً أبـــداً

يطالعنا عالمان متناقضان في النص، عالم القرب والألفة والطمأنينة، والعالم الآخر، عالم التفرق والتشتت والسهاد، ومثل هذا التضاد يولد حركة دينامية داخل النسيج الشعري، فقد استطاع هذا التضاد أن يجسد لنا حال الشاعر التي تعتريها موجات من الأمل واليأس والخوف والتوجس، فجاءت اللغة صدى لحالته الداخلية.

كما ان التضاد يستفز وعي المتلقي؛ لأن الشاعر جمع في سياق واحد بين المتناقضات، ولا شك في أن "التضاد أسلوب جمالي شديد الإبهار والقدرة على التأثير في المتلقي؛ لأنه يمثل طاقة تنبيهية تجعل المتلقي يعيد النظر في قضايا شديدة البساطة والعمق في الوقت نفسه".[22]

ويظهر التضاد الطبقي -إذا جاز التعبير- في شعره، من ذلك قوله يخاطب محبوبته:[23]

يا قليل الوفاء أنت مليك
ظالـم ليس يرحم المملوكـا
قد تركت الكتاب منك إلينا
خلفاً لم يزل -فديتك- فيكـا

تتضح طبقية في هذا النص، طرفها الأول: المليك "المحبوبة" الذي يتحكم بعاشقه ويذيقه صنوف العذاب، والطرف الآخر: المملوك "الشاعر" الذي ليس لديه يد في دفع الأذى عن نفسه.

ولعل الشاعر استمد هذه الصورة التضادية من مجتمعه الذي عاش فيه، فقد شهد التمييز بين الأحرار والعبيد وغير ذلك.

والطريف أن الشاعر كان يقيم تضاداً على صعيد الخيال، فيتوجه نحو التخيلات الشعرية، والسعي وراء الأحلام، كقوله:[24]

أما الخيال فإني سوف أعذره
عاتبته فأجـال الدمـع واعتذرا
وقال لي: لا تلمني لم أزل كلفاً
حتى أتيتك في الظلمـاء مستترا

يعتمد البيتان على التضاد الذي يتضح من خلال اللوم الذي يوجهه الشاعر إلى الخيال، ثم المصالحة التي انتهت بزيارة هذا الخيال في جوف الليل وتحت جنح الظلام؛ مما أعفى الشاعر من لوم المجتمع ومراقبة الناس.

ويبرز التضاد في قوله:[25]

سرى طيف فوز آخر الليل بالطف
فنحى الكرى عني وأغفت ولم أغف
وبات الهوى لي حاسراً عن ذراعه
يلهب في الصدر الهموم ولا يطفي
وبت كأني بالثريا معلق
أناشد من يدري ويعلم ما اخفي
ولو أن خلق الله راموا بوصفهم
تباريح ما بي قصروا عن مدى الوصف
فيا برح أحزاني ويا در عبرتي
ويا ويلتـي مـاذا لقيت ويا لهفـي

أليس بحسبي أن أبيع كرامة
بذل وأن أعطى المبهرج بالصرف؟
ولو أنصفتني في المودة والهوى
رضيت ويرضيني أقل من النصف
فيا رب ألّف بين قلبي وقلبها
لكيلا تعدى بي أمامـي ولا خلفـي

يبدو التناقض، هنا، بين الطيف والشاعر؛ إذ نلحظ معادلة صراعية، في النص، يقف فيها الشاعر مقابل الطيف، فالطيف يسري آخر الليل، فيبعث السهاد لدى الشاعر ويوقظ كوامنه، ويجعله في حالة ترقب وقلق، حين تتسلل الوساوس إلى نفسه. أما المحبوبة، فهي تغط في النوم، ومن هنا، فالشاعر لا يملك حيلة إلا أن يجأر بالشكوى المرة إليه سبحانه وتعالى أن يؤلف بينهما وأن يعينه على تحمل الصبر على مصيبته.

فالتضاد، هنا، هو الذي كشف عن مشاعر الشاعر وانفعالاته، وبالتالي، أبان عن حالة الضعف التي وصل إليها؛ إذ لم يجد سوى التوسلات والآهات، فهي سلاح العاجز وعلامة الملتاع.

3. الأنا والمجتمع

نلمس تضاداً بين الذات المبدعة والمجتمع في شعر العباس بن الأحنف، وذلك حين يقول:[26]

اخلع عذارك في هواك
ولا تخف من لا يخافك
خالف هوى من همه
- في كل ما تهوى- خلافك

يتبلور الانفصام، هنا، بين الشاعر والمجتمع؛ إذ يبرز صوت الذات للانعتاق من أعراف المجتمع وقيوده.

ومن البين أن الشاعر اختار كلمات تدل على المخالفة والتضاد، من مثل قوله: "اخلع" و"خالف" و"خلافك" ليشكل مدماكاً أساسياً في معمار النص وبنائه، ولتتحالف مع المعنى الذي يرمي إليه.

ويبدو التصارع والتوتر بين الشاعر والعاذل، حين يقول:[27]

كم عاذل لامني فيكم فقلت له:
شلّت يمينك هل بالحب من باس؟
لا لم تذق للهوى طعماً فتعرفه
بل أنت في غفلـة عمـا بعباس

يكشف التضاد عن حالة الشاعر الرافضة والمرفوضة من مجتمعه، هذه الحالة التي جعلت علاقته بالعاذل علاقة سلبية،

وصلت إلى حد الجدل والحوار، تعبيراً عن هذه العوالم المتضادة التي لم تأت عبثاً، وإنما هي صدى لنفسية الشاعر العذري الذي تتجاذبه عوامل الصراع النفسي الناجمة عن القيم والتقاليد الاجتماعية الصارمة، ومن هنا، لجأ الشاعر إلى لغة التسويغ، في البيت الثاني، فالحب هو الذي جعله يعيش حالة المصادمة مع مجتمعه.

ويخلق الشاعر علاقات تصادمية مع الوشاة؛ إذ يقول:[28]

قلت: الزيارة، قالت وهي ضاحكة:
الله يعلم فيهـا كنـه إضمـاري
فكيف أصنع بالواشين، لا سلموا
والحلي والطيب يأتيهم بأسراري

يتعمد الشاعر أن يقيم تضاداً في هذه اللوحة بين نقيضين: الأنا والوشاة، وقد كشف هذا التضاد عن معاناة الشاعر وشكواه الصارخة، فالشاعر يريد أن تكون حياته هانئة، ولكن الواشين يقفون له بالمرصاد، يعكّرون صفو حياته، ولذا، جاءت هذه الصيحة المدوية التي يطلقها الشاعر في البيت الثاني، ليعلن ضجره الشديد منهم، وهذا شيء طبيعي، "فالتجربة العاطفية عند الشاعر العذري تجربة داخلية في المقام الأول، وكان الاتصال بينه وبين العالم الخارجي معدوماً أو كالمعدوم، ولذا، فالشاعر يلجأ إلى التساؤل الذي يوجهه إلى نفسه، أحياناً، أو إلى الناس أو إلى صاحبته، أحياناً أخرى، دون أن ينتظر منهم جواباً".[29]

ويقص الشاعر هذا الصراع المرير، قائلاً:[30]

أرى كل معشوقين غيري وغيرها
قد استعذبا طعم الهوى وتمتعـا
وإني وإياها على غير رقبة
وتفريق شمل لم نبت ليلة معـاً
وقد عصفت ريح الوشاة بوصلنا
وجرت عليـه ذيلهـا فتقطعـا
وإني لأنهى النفس عنها ولم تكن
بشيء من الدنيا سواها لتقنعـا

يصنع الشاعر تقابلاً متضاداً في النص، فإذا كان غيره من العشاق يستعذب طعم الهوى، فإنه هو وصاحبته حليفهما القلق والأرق.

ويبدو أن الشاعر استمد الصورة التعبيرية - في عجز البيت الثاني- من الشاعر الإسلامي متمم بن نويرة حين رثى أخاه مالكاً.[31]

والطريف أن الشاعر يضيف كلمة "ريح" إلى الوشاة، وهي لفظة تدل على الشدة والهلاك وبخاصة في القرآن الكريم، كل ذلك، ليدلل على أن "الأنا" الشعرية تتلظى بنار الوشاة الذين يلعبون دوراً أساسياً في المراقبة والأذى والتفريق بينهما، وكأني به يحاول أن يحمل المجتمع على محاربة هذه الفئة من البشر.

فواضح أن علاقة الشاعر بالوشاة هي علاقة توتر وصراع، وهي من المظاهر البارزة في شعر الغزل، بل إن "الشاعر في وقفته في وجه الوشاة إنما هو في الواقع يمثل تمرداً في وجه المجتمع بتقاليده وعاداته ووسائله في الحد من العلاقات الوجدانية... كما أن وقفته وغيره من الشعراء المتيمين وثورتهم في وجه الوشاة إنما هي في الواقع انتصار لأنفسهم على الصعيد الداخلي بعد أن أخفقوا في تحقيق مرامهم على الصعيد الخارجي".[32]

وكان الشاعر يدرك أنه عاشق وأن للإسلام موقفاً من هذا العشق، ولذا، كان يهتف بأهل مكة، قائلاً:[33]

يا أهل مكة ما يرى فقهاؤكم
في عاشق متعـاهد لسـلام
أترون ذلك ضائراً إحرامه
أم ليس ذاك بضائر الإحرام

يظهر حس الانفصام بين الشاعر وفقهاء مكة، وقد اختار الشاعر "أهل مكة"؛ لأن مكة ترمز إلى القداسة والفقه والتدين. وأعتقد أن سؤال الشاعر في البيت الثاني يجسد لنا إحساسه بالمفارقة بين مسلكه الغزلي وبين نظرة الدين للعشق، ولذا، استخدم ضمير الغائب في البيت الأول، في قوله: "في عاشق"؛ لأنه لا يريد أن يقف وحده إزاء مجتمع "الفقهاء"؛ فجعل الشخصية الوهمية هي التي تقع تحت الأنظار والانتقادات.

4. الأنا والطبيعة "النبات والحيوان"

يلاحظ القارئ تضاداً بين الشاعر والطبيعة؛ إذ تتبدى شعرية التضاد على مستوى النبات، كقوله:[34]

أبغض الآس والخلاف جميعاً
لمكان الخلاف والياس منها
وأحب التفاح والورد حتى
لو وزنتيه بالجبال وزنهـا
أشبها ريقها ونكهة فيها
فهما ينبئان بالطيب عنهـا

يختار الشاعر نقيضين يصوران حالته النفسيه، فهو يبغض "الآس والخلاف"؛ لأنهما يغايران صفات المحبوبة، وفي الوقت نفسه، فهو يحب التفاح والورد؛ لأنهما يشبهان طعم ريقها وروائح فمها الزكية.

والظاهر أن الشاعر فلسف الموقف بأسلوبه الخاص، وهو

يستند في هذا على ظاهر الألفاظ؛ إذ يرى أن كلمة "الخلاف" ذات علاقة بالمخالفة، كما ان "الآس" مشتق من اليأس.

ولكن إذا دققنا النظر في الصورة، فإننا نلحظ صراعاً يتسلل إلى فكر الشاعر من خلال مخالفته ما وقر في الذهن العربي، فمن المعروف أن "الآس يرمز إلى خلة الوفاء والاستمرار وطول العهد، أما الورد، فيشير إلى انقطاع أوقات الحب والهناء، وبالتالي، فهو رمز انقضاء العهد."[35]

والشاعر إنما لجأ إلى هذا التضاد، انطلاقاً من الجمالية التي تكمن في التفاح والورد، من حيث طيب الطعم والرائحة الذي يشبه المحبوبة.

ونلحظ صراع الأضداد في قوله:[36]

أصبحت أذكر بالريحان رائحة
منها فللنفس بالريحـان إينـاس
وأمنح الياسمين البغض من حذري
عليك إذ قيل شطر اسمه الياس

يسقط الشاعر عالماً ويقيم عالماً آخر على أنقاضه، من خلال علاقات الصراع؛ فالشاعر يبتهج للريحان ويأنس به، ربما لأن "الريحان يحمل إشارة الخير... ويدل على الدعاء بما فيه من شآبيب الهناء"[37]. أما الياسمين، فينظر إليه الشاعر نظرة فلسفية ذاتية، أيضاً، فيتخيل أن شطره الأول هو اليأس، ولذا، فهو يكرهه.

والحقيقة أن الشاعر يسقط عالمه النفسي الخاص به على الطبيعة، ولا عجب في هذا؛ فهو عذري تنتابه موجات الألم والقهر والغربة؛ بسبب حبه الذي لا يستطيع أن يبوح به؛ فكان بحاجة إلى الطمأنينة التي يأوي إليها؛ فوجد ضالته المنشودة في الريحان الذي يوحي- ولو ظاهرياً- بالراحة.

وكان الشاعر يسقط العناصر المتغيرة على عالم الحيوان؛ إذ يقول:[38]

رأيت الحمام فهيجنني
وفيضن من عبراتي غروبـا
نواعم بين غصون الأراك
صادفن أمنا وخفضاً وطيبـاً
فلما بكيت وأبكيتهن
تمنيتكـم أن تكونـوا قريبـاً

يتبدى التضاد، في النص، بين الذات الشاعرة التي تعاني أزمة داخلية مريرة والحمام الذي اتخذه الشاعر معادلاً خارجياً، ليسقط عليه أمنياته، من مثل: الدعة والأمن، وكأنه وجد لدى الحمام ما افتقده في عالمه الذاتي.

ومعروف أن الحمام هو رمز المأوى والأنوثة والوداعة والحزن، وقد ربط الشاعر هذه الحمائم بغصون الأراك؛ لأن أشجار الأراك -كما أعتقد- ترمز إلى الاستقرار والراحة وسط بيئة صحراوية قاسية- حتى وإن كان الشاعر يعيش في مجتمع متحضر مدني - إذ إن الإنسان يستطيع أن يتفيأ ظلالها، فتقيه حرارة الشمس، وتمنحه النضارة والجمال.

ويسقط الشاعر تناقضاته الداخلية على الغراب، أيضاً، حين يقول:[39]

تعس الغراب! لقد جرى بفراق
هـ لا جرى بتزاور وتلاق؟
كيف التخلص من هواك؟ وإنما
أخذ الإله على الهوى ميثاقي
ورضيت بعد تنكبي طرق الهوى
أن قيل: صاحب راية العشاق
قد كنت أشفق قبل أن يقع الهوى
لو كان عني مغنياً إشفاقـي

تبدو علاقة الشاعر بالغراب علاقة سلبية، فالشاعر يرنو إلى المودة واللقاء، في حين ينعق الغراب، معلناً الفراق والبعد. والحقيقة أن الشاعر اتكأ على الموروث في نظرته إلى الغراب، ذلك أن الغراب في الاعتقادات القديمة يعد معلماً بارزاً من معالم الشؤم والنحس، ومن هنا، تشاءم الشاعر منه.

5. التضاد المكاني

تظهر فاعلية التضاد على مستوى المكان؛ إذ يقول العباس:[40]

أمسى الفؤاد بهذا المصر مرتهنا
فما أريد لنفسي غيره وطنا
دع الحجاز ومن أمسى يحل به
إن الفؤاد بأهل الغور قد فتنا

يبدو التضاد جلياً، في النص؛ فالذات الشاعرة ترفض الحجاز وأهله -ربما ظاهرياً- لأنها مفتونة بأهل الغور، فالشاعر لم يشتق إلى الحجاز لأنه لا يعنيه، فالمحبوبة ليست ساكنة فيه، وبالمقابل نجد الشاعر مفتوناً بأهل الغور؛ لارتباطه بهم، فالتضاد، هنا، ناجم عن طبيعة العلاقة التفاضلية بين المفضل والمفضل عليه، لتبيان أهمية الغور بالنسبة له.

وربما جاءت هذه الفكرة؛ فكرة النفور والنبذ التي جسدها فعل الأمر "دع" مجرد حيلة لجأ إليها الشاعر؛ ليخفي حبه الحقيقي للحجاز ومن به؛ خوفاً من أن يكتشف عشقه؛ آية ذلك، أننا نجد الشاعر يحب الحجاز ويحن إليه، أحياناً، فيعترف بأن محبوبته "حجازية"، مما يدفعه إلى أن يدعو للحجاز ولأماكنه المختلفة بالنماء والخضرة؛ إذ يقول:[41]

أقول وداري بالعراق ودارها
حجازيـة فـي حرة وسهوب
وكل قريب الدار لا بد مرة
سيصبح يوماً وهو غير قريب
سقى منزلاً بين العقيق وواقم
إلى كل أطم بالحجـاز ولوب
أجش هزيم الرعد دان ربابه
يجود بسقيـا شمـألٍ وجنوب

تظهر ثنائية المكان في الأبيات، فدار الشاعر في العراق، أما صاحبته، فهي في الحجاز، ومن هنا، تبرز ثنائية القرب والبعد، انطلاقاً من نفسية الشاعر التي تخشى البعد، بعد المحبوبة، ولم يكتف الشاعر بهذه المتضادات، وإنما راح يدعو لديار محبوبته بسقيا "شمأل وجنوب"، كل ذلك؛ ليبين الشاعر عن وضعه النفسي الذي تسيطر عليه مشاعر الحنين والشوق والحزن.

ويشرك الشاعر المكان في مناجاته وصراعه، فيقول:[42]

أيا منزلاً لا أبتغي ذكر أهله
وإن كنت مشغوفاً بذكرهم صبا
أزورك أستشفي لقلبي من جوى
وكرب أقاسيه فيحدث لي كربا

يشكل التضاد، هنا، مثيراً أسلوبياً يستحث المتلقي على تأمل المعنى والوقوف على رؤية الشاعر وهمومه وفكره، فالشاعر يتأرجح بين الإحجام عن ذكر أهل ذاك المنزل -حرصاً عليهم- وبين الشوق الشديد إلى التغني بهم، ولذا، كانت النتيجة هي زيارته له، استشفاء مما يعتريه من آلام، ولكنه استشفاء ممزوج بالأرق؛ مما يدل على حالة الشاعر النفسية بما ينتابها من ألم وحيرة وضياع.

ويستمر التقابل المكاني مشبعاً بأبعاد نفسية؛ إذ يقول:[43]

امزجا لي بماء دجلة كأساً
إنني قد مللت ماء الفرات
واندبا دهرنا بسالفتي دجلة
نصبـو ونجتنـي اللذات

يكتسب التضاد في النص قيمة، لأنه يسعف في الكشف عن انفعالات الشاعر وأحاسيسه، فالشاعر يرنو إلى ماء دجلة، ويرفض ماء الفرات، ذلك أن دجلة كان مكاناً ممتازاً للملذات.

والشاعر، هنا، يلتمس من صاحبيه أن يمزجا له كأساً بماء دجلة، ولعله يعني كأس الخمر، وبالتالي، فالمزج يرمز إلى الصفاء الذي يتطلع إليه، وكأنه يبتغي أن تكون حياته صافية هانئة.

ويتكلف الشاعر التضاد المكاني، أحياناً، إخفاء لحبه، وحرصاً على محبوبته، والشاهد على ذلك قوله:[44]

أبكي إلى الشرق إن كانت منازلهم
مما يلي الغرب خوف القيل والقال

أبرزت تقنية التضاد عالم الشاعر الداخلي على حقيقته، فهو يراوغ في مواقفه؛ حتى لا يتعرض لألسنة الناس.

وينسج الشاعر أبياته على الثنائية الضدية من خلال نظرته إلى الريح، فيقول:[45]

ولو ان الرياح كانت جنوباً
حملت مني السلام إليكـا
لكن الريح مذ غضبت شمال
فسلامي مع الشمال عليكا

تعكس آلية التضاد رؤية الشاعر إلى الكون، فالرياح الجنوبية تحمل السلام من الشاعر إلى الحبيبة، اما "الريح"، فهي تتحول إلى شمالية حين يغضب الحبيب.

ومن المعروف أن ريح الجنوب هي رمز الخير والعطاء في الذهنية العربية، أما ريح الشمال فهي رمز الجدب والشدة، ولذا، قرنها الشاعر بالغضب. قال الأصمعي: "إذا جاءت الجنوب، جاء معها خير وتلقيح، وإذا جاءت الشمال نشفت. وتقول العرب للاثنين إذا كان متصافيين: ريحهما جنوب، وإذا تفرقا، قيل :شملت ريحهما"[46].

6. التضاد الزماني

يبدو التضاد الزماني في شعر العباس بن الأحنف، من ذلك قوله:[47]

إن ساءك الدهر بهجرانه
فربمـا سـرك أحيانـاً
لا تيأسن من وصل ذي ملة
يظهر بعد الوصل هجرانـا

يتبدى الصراع بين الشاعر والزمن، في النص، ذلك أن عملية الإساءة والسرور -ضمن السياق- تشير إلى علاقة تصادمية تضادية بين ظالم ومظلوم وغالب ومغلوب، وقد أتى الشاعر بكلمة "الدهر" معرفة؛ ليوحي بالمواجهة بينه وبين الدهر، فقد صار الدهر معروفاً بالنسبة له.

ونلمس التصارع مع الدهر في قوله:[48]

أدبني الدهر بخذلان
أنكرتـه من بعد عرفـان
وصرت فرداً من خليلي الذي
كانت به تورق أغصانـي
فالحمد لله على ما قضى
لم تدم الدنيـا لإنسـان

تبدو فاعلية الصراع من خلال هذا البناء الاستعاري؛ فالشاعر كان على علاقة طيبة مع المحبوبة، لكنه غدا يشكو من الدهر بعد أنسنته، فهو قادر على التأنيب والخذلان، وقد أثمرت فعلة الدهر؛ إذ استحال الشاعر وحيداً بعد أن كان ينعم بوصل محبوبته.

وربما لم يكن الدهر سر شقائه ومعاناته، وإنما أهل الدهر الذين يتربصون به، ويكيدون له.

على أن هذا الصراع انتهى بالإيجاب والانسجام؛ فقد ترسخت قناعة لدى الشاعر بأن لا شيء يدوم في هذه الحياة؛ ولذا، فهو راض -أخيراً- عما جرى له.

ولنصغ إلى الشاعر وهو يصطنع ثنائية ضدية بينه وبين الزمن، فيقول:(49)

ألا ليت شعري كيف أصبح عهدها
أدام على ما كان أم قد تغيرا
فإن يك مر الدهر غير ودهـا
وأودى به طول الزمان فأدبرا
فإني لباقي الود لا متبدل
سواها بها حتى أموت فأقبرا

تقوم الأبيات على ثنائية تضادية تذكي جذوة الصراع بين الشاعر والدهر، فالدهر عنصر فاعل في تغيير المحبوبة وودها، في حين ان الشاعر متشبث بالوفاء لها، والحفاظ عليها.

ولا ريب في أن هذه الثنائية الضدية تفجأ المتلقي، ذلك أن الصراع، هنا، يقع بين طرفين غير متساويين في المقدرة، فالدهر هو الطرف الأقوى والمنتصر، أما الشاعر فهو العنصر الأضعف الذي يحاول الصمود أمام سطوة الدهر وسلطته.

وتتشكل ثنائية ضدية لديه، أيضاً، حين يقول:(50)

كرهت الصبح أرجو
راحـة الليـل إذا آبـ ـا
كمن فر من القطر
فصـار القـطر ميزابـا
وكان الليل للشوق
على المشـغوف جلبابـا

يمتلئ عنصرا الصبح والليل، في النص، بأبعاد نفسية؛ فالصبح الذي يتطلع إليه المهموم -عادة- يغدو مكروهاً عند الشاعر، أما الليل الذي يشكو الشعراء طوله وأرقه، فهو يستحيل خلال هذه المعادلة الجديدة إلى مطلب يرجوه الشاعر، لأنه يخفي أشواقه التي تكاد تفضحه في النهار، على أن هذا الليل لم ينقذه من معاناته وهمومه كلياً، فهو يقبع في قلق دائم.

7. الحياة والموت

كان الشاعر يحرص على جمع الثنائيات وإيرادها في تشكيل واحد؛ ليجسد موقفه من قضية الحياة والموت، من ذلك قوله:(51)

قد خفت أن لا أراكم آخر الأبد
وأن أمـوت بهذا الشوق والكمـد
الموت يا فوز خير لي وأروح لي
من أن أعيش حليف الهم والسهد

يتكئ النص على بنية التضاد، وهي بنية ذات أبعاد نفسية ومعنوية معاً، فالموت المكروه عادة من البشر، يغدو ضمن السياق النصي وسيلة مقبولة ومفضلة لدى الشاعر؛ لأنه ينقذه من الهم والأرق؛ مما يستفز المتلقي ويجعله يتأمل هذه الصورة، فيدرك أن هذا الأسلوب ناتج عن المكابدة التي يعيشها الشاعر.

وتبدو ثنائية الحياة والموت، حين يقول:(52)

يبكي رجال على الحياة وقد
أفنى دموعي شوقي إلى أجلـي
أموت من قبل أن يغيرك
الدهر وإنـي منه علـى وجل

فقد تضمن النص صورة تضادية تشكلت من عنصرين، الأول: رجال يتمسكون بالحياة، ويحرصون عليها، والآخر: الشاعر الذي يهدر دموعه، حباً بالموت، وإقبالاً عليه.

والحقيقة أن رؤية الشاعر للحياة والموت، في النص، انبثقت من تجربته الذاتية، فقد صار يرى الموت محببا، وذلك وفق حالته النفسية والانفعالية الناجمة عن غياب المحبوبة، في حين أن الحياة لم تعد لها قيمة لديه في ظل هذا الغياب.

وتتداخل الأضداد، حين يقول:(53)

يميت الهوى قوماً فيلقون راحة
من الضر والجهد المبرح والبلـوى
ويحيا به قوم أصابوا هواهم
وقد صرت فيهم لا أموت ولا أحيا

يقدم الشاعر تصوراً جديداً للهوى، فهو -الهوى- يميت أناساً؛ ليجدوا الراحة في الموت، وفي المقابل، فإن هناك آخرين يحيون بالهوى، حين يحققون أمنياتهم بلقاء أحبتهم، أما الشاعر - فعلى الرغم من مشابهة تجربته للآخرين- فإنه لا يجد سوى الشقاء والعذاب والضياع التي تهيمن عليه، وتستبد به.

خاتمـــة

درست في هذا البحث تجليات التضاد في شعر العباس بن الأحنف، فوقفت عند مفهوم التضاد في المعجمات، وعرضت آراء بعض الدارسين حول التضاد وقيمته في النص الأدبي.

وقد بان لي أن التضاد في شعر العباس قد توزع على

جملة موضوعات، من أهمها: الأنا والذات والانا والآخر "المحبوبة" والأنا والمجتمع والأنا والطبيعة والتضاد المكاني... وغير ذلك.

ويبدو أن للتضاد أهمية داخل السياقات النصية، فقد كشف لنا الشاعر -من خلاله- عن المشاعر والانفعالات التي كانت ترقد في نفسه، كما ساعد التضاد على تحفيز المتلقي وشده إلى مضامين الخطاب النصي، وذلك لاكتشاف المعاني التي تختفي وراء هذه الصور المتضادة.

الهوامـش

(1) الفيروز ابادي، القاموس المحيط، ضدد.
(2) ابن منظور، لسان العرب، ضدد.
(3) العسكري، كتاب الصناعتين، ص 307.
(4) ابن جعفر، نقد الشعر، ط3، ص 162.
(5) اليافي، جدلية أبي تمام، ص 54.
(6) أبو ديب، في الشعرية، ط1، ص 45، وانظر الرباعي، صور من المفارقة في شعر عرار، ص 297-335.
(7) أبو ديب، في الشعرية، ص 49.
(8) ربابعة، جماليات الأسلوب والتلقي، ط1، ص 150.
(9) بوقرة، قراءة سيميائية في طوق الحمامة لابن حزم الظاهري، مجلة جذور، العدد 12، السنة 6، ص 535.
(10) محمد، جماليات الفن، ص 193-194.
(11) ابن الأحنف، الديوان، ص 3.
(12) الساحلي، التضاد في النقد الأدبي، ط1، ص 213-215.
(13) الديوان، ص 83.
(14) المصدر نفسه، ص 75.
(15) المصدر نفسه، ص 61.
(16) المصدر نفسه، ص 33.
(17) المصدر نفسه، ص 168.
(18) المصدر نفسه، ص 32.
(19) المصدر نفسه، ص 84.
(20) عفيفي، نحو النص، ط1، ص 113.
(21) الديوان، ص 95. بددا: متفرقا.
(22) ريان، اللغة والشكل، ط1، ص 61.
(23) الديوان، ص 203.
(24) المصدر نفسه، ص 126.
(25) المصدر نفسه، ص 183. الطف: أرض من ناحية الكوفة كان فيها مقتل الحسين بن علي .الدرهم المبهرج: الزائد. الصرف: الصحيح. تعدى: تتعدى، تتجاوز.
(26) المصدر نفسه، ص 189.
(27) المصدر نفسه، ص 165.
(28) المصدر نفسه، ص 154.
(29) القط، في الشعر الإسلامي والأموي، ص 162.
(30) الديوان، ص 172.
(31) وذلك حين قال:

فلما تفرقنا كأني ومالكاً

لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

انظر المفضليات، ط6، ص 267.
(32) نافع، الشعراء المتيمون في الجاهلية والإسلام، ط1، ص 111.
(33) الديوان، ص 243. الإحرام: الدخول في الشهر الحرام.
(34) المصدر نفسه، ص 283.
(35) كشاش، اللغة والحواس، ط1، ص 172-173.
(36) الديوان، ص 161-162.
(37) كشاش، اللغة والحواس، ص 175-176.
(38) الديوان، ص 47.
(39) المصدر نفسه، ص 200-201. التنكب: التجنب.
(40) المصدر نفسه، ص 273.
(41) المصدر نفسه، ص 7-8. حرة: أرض ذات حجارة سوداء نخرة كالمحروقة بالنار. سهوب: مفردها سهب وهو المستوي من الأرض. العقيق: واد بالقرب من المدينة. واقم: موضع في ناحية المدينة. الأطم: الحصن. لوب: جمع لوبة وهي الحرة من الأرض. ربابه: سحابه الأبيض.
(42) المصدر نفسه، ص 39.
(43) المصدر نفسه، ص 65.
(44) المصدر نفسه، ص 223.
(45) المصدر نفسه، ص 204.
(46) ابن منظور، لسان العرب المحيط، جنب.
(47) الديوان، ص 277. الملّة: الملل والضجر.
(48) المصدر نفسه، ص 275.
(49) المصدر نفسه، ص 131.
(50) المصدر نفسه، ص 16-17. الميزاب: المزراب.
(51) المصدر نفسه، ص 96.
(52) المصدر نفسه، ص 221.
(53) المصدر نفسه، ص 2.

المصادر والمراجع

ابن الاحنف، العباس، ديوانه، شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي، 1954، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، 1978، مكتبة الخانجي، ط3، مصر.

ابو ديب، كمال، 1987، في الشعرية، مؤسسة الابحاث العربية، ط1، بيروت

ابن منظور، جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، قدم له عبدالله العلالي، 1988، دار الجيل، بيروت.

بوقرة، نعمان، 2003، قراءة سيميائية في طوق الحمامة لابن حزم، مجلة جذور، النادي الادبي الثقافي، ع12، جدة.

ربابعة، موسى، 2000، جماليات الاسلوب والتلقي، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، ط1، اربد، الاردن.

الرباعي، عبدالقادر، د.ت.، صور من المفارقة في شعر عرار، قراءة من الداخل، في، بحوث عربية مهداة الى الدكتور محمود السمرة، تحرير حسين عطوان ومحمد حور.

ريان، أمجد، 1999، اللغة والشكل، ط1، مركز الحضارة العربية، القاهرة.

الساحلي، منى، 1996، التضاد في النقد الادبي، ط1، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي.

العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، تحقيق علي البجادي وأبي الفضل ابراهيم، 1986، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

عفيفي، أحمد، 2000، نحو النص، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.

الفيروز ابادي، مجد الدين، القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة.

القط، عبدالقادر، 1987، في الشعر الاسلامي والأموي، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت.

كشاش، محمد، 2001، اللغة والحواس، ط1، المكتبة العصرية، بيروت.

محمد، علي عبد المعطي، 1994، جماليات الفن، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

نافع، عبد الفتاح، 1986، الشعراء المتيمون في الجاهلية والاسلام، مكتبة الكتابي، اربد، الاردن.

اليافي، عبد الكريم، 1980، جدلية ابي تمام، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد.

Antithetical Manifestations in the Poetry of 'Al-'Abbas Ibn 'Al- 'Ahnaf

*Saleh Ali Saleem Al-Shtaiwi**

ABSTRACT

This paper shows the antithetical manifestations in the poetry of 'Al-'Abbas Ibn. 'Al-'Ahnaf. The term "antithetical" here refers to giving prominence to contrasting and contradictory situations within the poetic psyche or between this poetic psyche and people, places, time, beasts, etc… as would form an innovative vision of life. Antithetical in this context does not refer to rhetorical antitheticalism. It refers to the welters of contradictory feelings in his psyche which he reflected in the text of his verses. This paper's author seeks to put forward these antithetical manifestations, the meaning behind them and their effects on the reader.

KEYWORDS: manifestations, 'Al-'Abbas, 'Al- 'Ahnaf.

*Department of Arabic Language, Faculty of Sciences and Arts, The Hashemite University, Zarqa, Jordan. Received on 12/4/2004 and Accepted for Publication on 30/6/2004.